الطلعة وجمال الوجه حتى ان الناظر اليها ليخالها زهرة من ازهار البساتين افرخت اتفاقاً بين نباتات الحقول . وكانت تربياتها يعترفن لها بالميزة عليهنَّ في الجمال والدلال لا عن حسد او غيرة لان لطفها وعطفها وحنوها فاقت جمالها واكسبتها حبَّ الجميع

ولما كانت القرية بمعزل عمَّا حولها من البلدان ابقى اهلها على بعض التقاليد والعادات الانكليزية القديمة فكانوا يحافظون على الاعياد لاسيما نيروز مايو . والفوا سيفي راعي كنيستهم منشطاً لهم فقد كان الرجل كلفاً بالعادات القديمة يعتقد ان من واجبات المرء زيادة افراح الحياة وتشديد اواخي السلام بين الناس فكانوا يحتفلون برعايته بنيروز مايو هذا سنة فسنة فينصبون العمود ويكللونهُ بالخضرة والازهار ويزينونهُ بالرايات ثم ينتخبون ملكة النيروز من فتياتهم فترأس الحفلة وتوزع الجوائز والهدايا كما كانوا يفعلون في العصور القديمة فكانت تلك الحفلات وجمال القرية الطبيعي داعية لجذب الزوَّار والمتفرجين اليها من الجوار . وحدث ان ضابطاً فتى كانت فرقتهُ معسكرة في تلك الناحية زار القرية ابَّان النيروز فراقهُ ما فيهِ من البساطة والرونق وسلبت لبَّهُ ملكة مايو بجمالها ولطفها (وهي حسناء القرية) وقد كلَّلوها بالازهار وانار وجهها الابتسام العذب والحياء الطاهر وتوردَّت وجنتاها ابتهاجاً وحبوراً . ولما كانت عادات المكان بسيطة استطاع الضابط ان يتعرفها ولم يمضِ ردحٌ من الزمان حتى اكتسب صداقتها وميلها اليهِ وهو يتودَّد اليها ويبدي انعطافهُ لها كما يفعل كثيرون من الضباط الشبان فيعبثون بسذاجة القرويَّات وقلوبهنَّ

لكنهُ لم يفاتحها امر الحبّ ولا اتى على ذكرهِ وانما هنالك من الطرق للافصاح عنهُ ما هو ابلغ من الكلام واسرع منهُ بلوغاً الى القلب واشد وقعاً فيهِ فالتقاد العينين ورنَّة الصوت والرقَّة التي تنبعث من كل لفظة ونظرة وحركة — هذه صور بلاغة الحبّ يشعر بها الواحد ويدركها لكنهُ يعجز عن وصفها . فلا بدع اذاً ان الفتى اكتسب قلباً خلياً طاهراً يفيض بالعواطف . اما الفتاة فاحبتهُ وهي لا تفقهُ ما الحب ولم تقف لتسأل نفسها عن ذلك الشعور الذي انبثق في فؤادها فشغلها عن سائر الخواطر والعواطف ولم تتردَّد في النظر في عواقبهِ فاكتفت بالحاضر ولم تنظر الى المستقبل فاذا حضر حبيبها صارت كلها آذاناً وعيوناً لسماع كلامهِ والتملي من مرآهُ واذا غاب عنها عادت تتأمل فيما حدث لها في اجتماعهما الاخير وكانا يقضيان زمان اللقاء يتماشيان في الحقول والهضاب المجاورة بين الخضرة والاشجار فعلَّها ان ترى في الطبيعة حولها جمالاً جديداً لم تكن تراهُ وحدها وهو يطرفها بالاخبار والنكات بالكلام المسبوك كلام اهل الطبقة العليا من الناس فكان كمن يتنفس في أُذنيها انفاس النخيل والشعر والحرية

وكان انعطاف هذه الفتاة اليهِ كاظهر ما يكون عليهِ الحبّ وقد يحدث ان جمال منظرهِ وبهاء بزتهِ العسكرية خلبا لبها لاول وهلة وانما الذي أسر فؤادها مبلغهُ من التربية والمعرفة والتعليم فكان حبها لهُ يقرب من العبادة تنبّه فيها اجتماعهُ بها رقّة عواطفها واستعدادها الفطري للتخيل الشعري فاستيقظت فيها تلك العواطف للشعور بالجمال والرفعة والعظمة ولم تحفل بالبون الشاسع بينهما في المقام والغنى وانما الذي وقع في نفسها ورفع قدرهُ في عينيها مقارنة ما شاهدتهُ فيهِ من قوّة العقل وكمال آداب المخالطة والمعاشرة والسلوك وما اعتادتهُ من سذاجة العيشة القروية فكانت تصغي لاحاديثهِ باذنين مسحورتين وقد اغضت عينيها حياء وابتهاجاً وتورّد خداها فاذا التفتت اليهِ التفاتة الظبي النفور على سبيل الاعجاب بهِ عادت فاستردّت لحظتها وهي تتنهد وقد صبغ وجهها الحياء شعوراً منها بتقصيرها عنهُ

وكان الفتى يهواها بقدر ما تهواهُ على ان حبهُ لها لم يكن خالصاً من الشوائب فانهُ طالما سمع اخوانهُ الضباط يتفاخرون باخبار حبهم لبنات القرى ووقائعهم معهنّ فرأى ان يحذو حذوهم صوناً لصيتهِ بينهم على ان ملاهي العالم وملذاتهِ لم تكن قد بردت فؤادهُ ولا ملأتهُ بعد بمحبة الذات فلم تكد جذوة الحبّ تمسهُ حتى التقد جميعهُ وقبل ان يدري الفتى شيئاً عن حالهِ اذا هو يهوى فلما ادرك الحقيقة حار في امرهِ لعلمهِ ان امامهُ من الموانع ما يمنع اقترانهُ بالفتاة التي احبها فمقامهُ في الهيئة الاجتماعية وتعصب انسبائهِ من الاشراف وكونهُ عالة على والدٍ متكبر صعب المراس جميع هذه وقفت حائلاً دون اقترانهِ بالقروية ولكنّ سذاجة الفتاة وثقتها بهِ واخلاصها لهُ وطهارتها وسلامة حياتها من الشوائب ورقة لحظاتها الممزوجة بالحشمة تغلبت على افكارهِ السيئة . وسدّى حاول ان يشدّد قلبهُ بتذكار ما سمعهُ من اخبار الاشراف وقلة شفقتهم ليبرّد ما فيهِ من شريف العواطف الكريمة فلم يستطع فكان اذا اجتمع بالفتاة الفاها مجللة بطلسم تلك الطهارة العذراوية السرّية — ذلك الجوّ المقدس حيث تنهزم الافكار السيئة

وحدث في ذلك الحين ان الاوامر صدرت لفرقتهِ بالسفر الى اوروبا فتمّ بهِ اضطراب افكارهِ وظلّ بضعة ايام في قلقٍ عنيف مستمرّ فاخفى الخبر عن الفتاة الى ان دنا يوم السفر فاطلعها عليهِ اما هي فلم يكن الفراق قد خطر ببالها ففاجأها نبأهُ حلم سعادتها فقطعهُ ورأت فيهِ خسارة لا تعوّض فبكت بكاء الاطفال بكاء صادراً من قلب نقي حزين فتأثر الفتى جدًّا فاخذ يعزيها ويطيب خاطرها ويقبل دموع الحزن من عينيها وهي لا تصدهُ لان هنالك من الساعات ما يختلط فيهِ الحزن ورقة القلب فيقدّسان ملاطفة الحبّ . وكان الفتى بعدُ في حدة الشباب فلما رأى تلك الحسناء تذرف الدمع وقد القت اتكالها عليهِ وخشي ان يخسرها الى

الابد تغلبت عواطفهُ على عقلهِ فعرض عليها ان تترك والديها وتصير رفيقة عمرهِ . وكان حديث العهد في فن الاغواء فتمم هذه الكلمات وقد صبغ الدم وجهَهُ اما الفتاة فلم تفقه مغزى قولهِ ولم تدرك سبباً لمغادرة قريتها وبيت ابيها لكنها لم تعتم ان فطنت الى قصدهِ واندفع ذلك الخاطر في نفسها كالبرق اللامع فاحرقها ونشف عينيها فارتدت مذعورة الى الوراء كمن انتصبت امامهُ افعى ثم نظرت اليهِ نظرة نفذت الى قلبهِ ولم تفه ببنت شفة بل ضمت يديها وهربت — كمن يطلب النجاة — الى بيت ابيها وعاد الضابط خجلاً ثائباً ولا يعلم ما ثار في صدرهِ من الحرب التي اثارتها هواجسهُ واضطرابهُ على ان اهتمامهُ بالسفر واستعدادهُ لمبارحة تلك الديار صرفا افكارهُ في وجهة اخرى وتلا ذلك تنقلهُ في بلدان ومناظر جديدة وملذات جمة بين الرفاق والاصدقاء فاسكت هذا التنقل والتبديل صوت توبيخ ضميرهِ وتقريعهِ وخنق عواطفهُ الكريمة لكنهُ ظلَّ في وسط المعارك وفي المعسكرات والولائم تسبح افكارهُ وتعود الى تلك القرية البديعة فيتذكر الكوخ الابيض والطريق المكسوّ بالخضرة على ضفة النهر الفضي ويتصور تلك القرويةَ الحسناء مستندة الى ذراعهِ تصغي الى حديثهِ وقد انقدت عيناها بالحبّ الحنون

وكانت الضربة التي حلَّت بالفتاة فهدمت عالم خيالها قاسية شديدة فنيت بالاغماء والصرع وعقب ذلك ما لتخواليَا مستمرَّة — نظرت في صباح غد ذلك اليوم المشوم الى الجنود وقد اصطفوا ينتظرون الامر بالمسير ثم رأت حبيبها الخائن راكباً ركوب الظافر يجري بهِ الجواد بين نفخ الزمور وقرع الطبول وبريق الاسلحة — نظرت اليهِ آخر نظرة وقد انعكس نور الشمس عن حلتهِ وعدتهِ وحرَّك النسيم ريش خوذتهِ الى ان غاب عن عينيها فكان كرؤيا لامعة مرَّت بها وخلفت وراءها ظلاماً دامساً

ولا اسهب في قصر حكايتها بعد ذلك فانها كسائر اخبار الحبّ العقيم فصارت تطلب الخلوة وتقضي اوقاتها في التجوال حيث كانت تمشي وحبيبها قبل فراقهما وهي كالغزال المجروح تبغي البكاء والانفراد مفكرة في السهم الذي راشهُ الحزن ورماهُ في فؤادها وكانت تختار احياناً الجلوس في العشية امام كنيسة القرية وكثيراً ما سمعتها الحلالات وهنَّ عائدات في المساء تغني اغاني شجية ماشيةً على مهل في اظلال الاشجار وزادت تديناً وتقوى وتعلقاً بالعذراء الالهية حتى اذا ما رآها الشيوخ والعجائز مقبلة الى الكنيسة نحيلة صفراء وعلى وجنتيها بقعتان حمراوان وقد انشحت بوشاح الحزن المقدَّس فتحوا لها طريقاً بينهم كما لبعض اهل عالم الارواح وهزوا رؤوسهم كمن يرى العاقبة غير بعيدة

وعلمت انها سائرة في طريق القبر لكنها اعدَّتهُ مكاناً لراحتها بعد ان انقطع الوتر الفضي

الذي كان يربطها بالحياة و بعد ان لم تعد ترى سروراً في ما تحت الشمس ولم يطل زمان غيظها من حبيبها اذ لم يكن الغيظ من طبيعتها فلما اشرفت على الانحلال خطّت كتاب وداع اليهِ حشوهُ البساطة في عبارات تمسُّ اعماق القلوب فاخبرتهُ انها على حافة القبر وان سلوكهُ معها اذبل حياتها ثم وصفت ما قاستهُ من صنوف العذاب الى ان قالت " ولكني لا استطيع ان اموت بسلام ما لم ابعث اليك بغفراني و بركتي "

واخذت القوة تفارقها تدريجاً حتى لم تعد تستطيع الخروج من البيت فكانوا يجلسونها على كرسي تجاه النافذة و يحيطونها بالوسائد فتقضي النهار تتأمل ما امامها من المناظر لا تنبس بشكوى ولا تنمّ بما يخز فؤادها من الداء المستعصي ولا تفوه باسم حبيبها لكنها كانت احياناً تسند رأسها الى صدر والدتها وتذرق الدمع السخين صامتةً . واقام والداها التعيسان على الاعتناء بزهرة آمالها الذابلة وهما يعللان النفس بانها تعود الى سابق نضارتها حاسبين ان تلك الحمرة التي كانت تصبغ وجنتيها بعض المرّات بشير الصحة والعافية

وفي عشية بعض الآحاد جلست بينهما وبداها في ايديهما والنسيم البليل يدخل البيت من النافذة حاملاً انفاس الازهار التي غرستها بيديها وعرشتها حول النافذة وكان والدها يقرأ لها فصلاً من التوراة يصف بطلان الامور العالمية وسرعة زوالها و يشير الى افراح السماء فاكسبها ما سمعتهُ راحة وسكينةً وكانت عيناها متجهتين الى كنيسة القرية والجرس يقرع صلاة المساء وقد سكنت الطبيعة سكوناً مقدساً خاصاً يوم الراحة وابواها ينظران الى وجهها و يتأملانهِ بقلوب تكاد تنفطر لان المرض والحزن اللذين يسلبان الوجوه من جمالها اكسبا وجه هذه الفتاة عيئة الملائكة — حينئذٍ انحدرت دمعة من عينها الزرقاء — أفكانت تفكر في حبيبها الخائن او اتجهت افكارها الى القبر حيث علمت ان جسدها سيرقد الى الابد

وبينما هم كذلك اذا صوت وقع حوافر ثم اندفع فارس نحو البيت فترجّل تحت النافذة وللحال صاحت الفتاة وأُغمي عليها فانهُ كان حبيبها التائب فاسرع الى الغرفة وتقدّم يريد ان يضمها الى صدرهِ لكنّ تحول جسمها وشحوب وجهها الجميل نفذا الى اعماق قلبهِ فانطرح عند قدميها كالمجنون وافاقت الفتاة والتمست الوقوف فلم تستطعهُ ثم حاولت ان تمدّ يدها وفتحت شفتيها كمن يريد النطق ولكن ابى اللسان ان يطيعها فحدقت بحبيبها وعلى فمها ابتسامة حلوة مملوءة بالانعطافات ثم اطبقت عينيها — الى الابد

خليل ثابت